أزمة العمل القومي العربي

على هامش «المؤتمر القومي العربي» في دورته السابعة عشرة

. بسام أبو غزالة * .

يبدو أنّ المؤتمر القومي العربي في دورته السابعة عشرة حدا الكثرةَ من الكتّابِ إلى الكتابة عنها ـ مشيدًا بها بعضُهم، ومقلِّلاً من أهميّتها بعضُهم الآخر، وحافزًا طائفةً أخرى منهم إلى المطالبة بتحرير العمل القومي من «طروحاته وصيغه القديمة.» وقد حفزتْني عضويتي في هذا المؤتمر من ناحية، والتزامي قديمًا وحديثًا بالفكر القومي العربي من ناحية أخرى، إلى الإدلاءِ بدلوي في الموضوع.

ممّا لا شكَّ فيه أنّ العمل القومي العربي يمرُّ في أزمةٍ حقيقيةٍ بدأتْ تتفاقم بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وما تبع ذلك مباشرةً من إخراج مصرَ من ريادة العمل القومي العربي، ومن انهياراتٍ أوقعت الوطنَ العربيَّ في الدركِ الأسفل الذي نراه فيه اليوم والحقّ أنّني تعمَّدتُ أن أسِمَ هذه السطورَ بعنوان «أزمة **العمل** القومي العربي،» لأنّني أرى أنّ الأزمة التي يعانيها الفكرُ القوميُّ العربي ليست بالحدّة التي يعانيها العملُ القوميُّ العربي.

تعرّض الفكرُ القومي العربي لسوء فهم كبير، صَدَرَ أساسًا عن الإسلاميين، والماركسيين، وأتباعِ بعض الأعراق غير العربية ممن يُقيمون في بلاد العرب، وكذلك من أتباع بعض الطوائفِ الإسلاميةِ أو غيرِها.

• كان الإسلاميون أولَ من أساءَ هذا الفهمَ، ولم ينجُوا أحيانًا كثيرًا من عصبيةٍ مالت إلى بناء جدارٍ فاصلٍ لقطع كلِّ طريق للنقاش سببُ هذا، في رأيي، أنّ الكثرة منهم تنصِّبُ نفسَها دون غيرها قيِّمةً على فهم الفكر الإسلامي. وقد يظنُّ بعضُهم أنّ التزامَه الفروضَ والمناداةَ بدولة الإسلام وترديدَ القول إنّه «لا يَصْلُحُ آخرُ هذا الأمر إلا بما صَلَحَ به أوّلُهُ» كافيةٌ لتنصيبه مفتيًا في قضايا الفكر وتأويل النصِّ المقدَّس. بل إنّي كنتُ أعيبُ على الكثيرين من قيادييهم تدنِّي إتقانهم للغة العربية ـ علمًا أنّ الأدب، إذ يَنْطوي على بحرٍ واسع من صنوف البلاغة، هو المفتاحُ الرئيسُ الذي لا بدَّ منه لفهم النصِّ القرآني

ضالّةُ الإسلاميين، إذ يَلْحُون الفكرَ القوميَّ، قولٌ منسوبٌ إلى الرسول، عليه السلام، أنْ «دَعُوها فإنّها مُنْتِنَةٌ.» والحقيقة أنّ الرسول كان يقصِدُ بهذا القول **العصبيّةَ** القبلية لا العروبةَ. فقد أَثرَ عنه اعتزازُهُ بعروبته وبلغة العرب، التي جعلها مقياسًا لانتماءِ مَنْ يتكلّمُها إلى العروبة بل أثر عنه قولُه «أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابنُ عبد المطّلبْ »

وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على أنّ الإسلام، إذ يَنْبذ العصبيةَ القبليةَ، يتقبّلُ اعتزازَ المرء بقومه الأقربين من أبناء عشيرته، أو بقومِه الأبعدين من أبناء أمّته. كلُّ هذا على ألاّ يتحوّلَ هذا الاعتزازُ إلى عصبيّةٍ تعادي الأقوامَ والأممَ الأخرى، باعتبارِ ألاّ فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى والفكرُ القوميُّ العربيُّ الحقُّ لا يُضمِرُ ما في النازية أو الشوفينية من عصبية، وإنّما له غرضٌ أساسيٌّ هو توحيدُ هذه الأمة لتعزيز شوكتها. ومثلُ هذا الغرض ماديٌّ محضٌ، منصبٌّ بالضرورة في مصلحة الأمة. فإن انطوى على اعتزازٍ مشروعٍ بانتماء العربي إلى أمته، فإنّه لا ينطويَ على عصبيةٍ كارهةٍ لغيرها أو مستعليةٍ عليه

من حسن الحظ أنّ الكثرة من الإسلاميين اليوم، وقد حَرَّرهم مرورُ الزمن من عصبيةٍ ذاتِ أسبابٍ دنيويةٍ، أخذوا يتفهمُّون هذا الأمرَ، بل يرونْ أنّ توحيدَ الأمة العربية ـ وهي سندُ الإسلام ولحمته ـ يمكن أن يكون خطوةً أولى لا بدّ منها لتوحيد المسلمين. ولعلَّ إنشاءَ المؤتمر القومي الإسلامي موازيًا للمؤتمر القومي العربي، وبمبادرةٍ ودعمٍ منه، كان ذا دلالةٍ مهمّةٍ على هذا التحوّل

---

* ـ كاتب فلسطيني

. بســـــام أبـو غـــــزالـة .

تعرّض الفكر القومي العربي لسوء فهم كبير صَدَر عن الإسلاميين والماركسيين وبعض أتباع الأعراق غير العربية

• أما الماركسيون والشيوعيون، فقد أساءوا هم أيضًا فهمَ الفكر القومي يومَ تشبّثوا بالقول إنّ الدعوة القومية العربية ما هي إلا نحتٌ من الفكر القومي البرجوازي في أوروبا. وإذ جاءت الماركسية لتَنْقضَ الفكرَ البرجوازيَّ وما تأتّى عنه، فالفكرُ القومي العربي محارَبٌ أيضًا في هذا السياق

ولكنّ الماركسية في الوطن العربي فشلتْ، في رأينا، في الانعتاق من تشكُّلِها على طبيعةِ المجتمع الصناعي الأوروبي الذي نَبتتْ بذورُها في تربته وأزمة الشيوعيين وبعضِ الماركسيين العرب أنّهم كانوا يَنْقلون ما بُنِيَ على المجتمع الصناعي الأوروبي ليُقْحموه على مجتمع مازال أغلبُهُ رعويّاً أو زراعيّاً بدائيّاً، وفي أحسن الأحوال صناعيّاً بسيطًا أو خدميّاً طفوليّاً. والحال أنّ الفكر القومي العربي ليس فكرًا برجوازيّاً، لأنّ البرجوازية ـ تعريفًا ـ هي طبقة الصناعيين التي قامت على أنقاض الطبقة الإقطاعية في أوروبا، أو أيةِ طبقةٍ مشابهةٍ لها في العالم فأين الصناعةُ عندنا، وأين هي طبقتُها؟!

ومن حسن الحظّ، مرةً أخرى، أنّ الكثرة من ماركسيينا بدأتْ تدركُ أنّ الدعوة القومية العربية هي دعوةٌ لتوحيد العرب، ولا علاقة لها ـ في حدّ ذاتها ـ بالفكر الاقتصادي الذي يُمْكن أن تقومَ عليه دولةُ الأمة الموحّدة نقول هذا مؤكّدين أنْ لا بدّ من فكرٍ اقتصادي قادرٍ على تفعيل الجماهير لفرض العمل الوحدوي العربي على حُماة القُطْرية المستفيدين من واقع التجزئة. أما سِمةُ هذا الفكر الاقتصادي، فليتنافسْ عليها أصحابُ النظريات المختلفة، على ألاّ ينسلخَ أيٌّ منهم عن الدعوة إلى وحدة الأمة، لأنّ فكرَه في هذه الحال سيغدو محلّقًا في سماءٍ لا أرض تحتها كذلك، إنْ لم يعالِجْ هذا الفكرُ واقعَ المجتمع العربي ولم ينطلقْ من حقيقته، فسيغدو فكرًا خياليّاً.

• أما أتباعُ الأعراق غير العربية المقيمون في الوطن العربي، فإنّ الفكرَ القومي العربي لا يَهْضمُهم حقَّهم بالضرورة. بل إنّنا نرى أنّ الذي يحرّك بعضَهم ويتباكى على ثقافاتهم هم الإمبرياليون والصهيونيون الذين يريدون تفتيتَ العرب والقولُ عينُه قد يقالُ عن أصحابِ بعض الطوائفِ من إسلامية وغيرها وإنكارُ بعضهم لعروبته، وزعمُه بأنّه فينيقي لا عربي، هرطقةٌ لا لحمَ لها على عظم. إذْ أين اللغةُ الفينيقية التي يتكلّمونها بدل العربية ما داموا فينيقيين؟ ثمّ ما هذا العجبُ العجابُ أن يكون سايكس وبيكو، يومَ شَطَرا بلادَ الشام، استطاعا بعبقريتهما أن يحدّدا بالضبط حدودَ لبنان الفينيقي، فيَفْصلاه بمهارةٍ بالغةٍ عن سورية وفلسطين، باعتبارهما عربيتين لا فينيقيتين؟ وكيف ينتسب كاتبُ هذه السطور إلى العروبة، وأبناءُ عمومته في لبنان مشمولون بالفينيقية؟

محاربة الفكر والعمل القوميّيْن

لعلّ من أعظم عوامل أزمة العمل القومي الحربَ عليه وعلى الفكر الذي يستند إليه، ولاسيّما من طرف الإمبرياليين والصهيونيين.

فأما الإمبرياليون فإنّهم يمثّلون القوةَ التوسعية الاقتصادية التي بدأتْ في أوروبا بعد الثورة الصناعية فيها، وبعد أن باتت أوروبا في حاجةٍ إلى الخامات الصناعية، ثم إلى الأسواق المستهلِكة لصناعتها فأخذتْ جيوشُها تغزو العالمَ غيرَ الصناعيِّ وتسيطر عليه عسكريّاً لإخضاعه للغايتيْن اللتيْن ذكرناهما. وإذ جَلَتْ جيوشُ الاحتلال المباشر عن مستعمراتها، فقد بقيتْ بقاعٌ كثيرةٌ من العالم، ومنها الوطنُ العربيُّ، مسيطَرًا عليها من قِبل الإمبرياليةِ الصناعية الغربية، وعلى رأسِها اليومَ الولاياتُ المتحدة الأميركية. ولعلَّ بريطانيا في بداية القرن العشرين أدركتْ خطورة توحُّدِ الوطن العربي على مصالح الإمبريالية، فلم تكتفِ بتجزيء ما تحت هيمنتِها من هذا الوطن، بل أسرعتْ إلى دعم المشروع

الصهيوني الجنين، فقدَّمتْ له أرضَ فلسطينَ بوعدها المعروف. لقد كان الخبثُ البالغُ في هذا الوعدِ يقومُ على أنّ التشطيرَ وحده غيرُ كافٍ لديمومةِ تفرقةِ العرب، فقد يأتي يومٌ تَخْرجُ فيه هذه الأمةُ من تحت الهيمنة الإمبريالية، وتُدْركُ الحكمةَ في توحُّدِها، مشكِّلةً بذلك تحدِّيًا حقيقيّاً للإمبريالية الغربية. ولذلك فإنّ زرعَ خليّةٍ سرطانيةٍ في خاصرةِ الوطن العربي حريٌّ به أن يَضْمنَ ديمومةَ هدرِ الموارد وضعضعةِ الاقتصاد وعرقلةِ التنمية، الأمرُ الذي يَرْهنُ هذه الأمةَ دائمًا للسيطرةِ الإمبريالية.

غير أنّ دولة الاغتصاب الصهيوني لا تكتفي بأن تكون تابعًا مطيعًا للإمبريالية الغربية، بل باتت جزءًا منها لأنّها أيضًا تريد الحفاظَ على ذاتها، ولأنّ قادة هذه الدولة يدركون أنّها جسمٌ دخيلٌ يُعاني هاجسَ التهديد بوجودِه. ولذلك ليس من مصلحة «إسرائيل» أن يتوحَّدَ العربُ، ولا تَمْلكُ ترَفَ التهاون في إدامةِ التآمر على الأمةِ العربية. ومن هنا لا نَفْهم الغباءَ الذي بدأ يخرجُ علينا به أصحابُ أوسلو، ومن لفَّ لفَّهم من اللبراليين العربِ الجدد، في ضرورة إنهاء حالة الحرب والعداء مع الدولة الصهيونية إنّه لمن الغباءِ المستحكمِ الظنّ أنّ تآمر دولة الاغتصاب الصهيوني على الأمة يُمْكن لجمْه بمعاهدة سلام!

أما المستفيدون الآخرون من حال التجزئة، فهم الحكامُ القُطْريون وبطانتُهم. لذلك فإنّهم بالضرورة معادون للفكر القومي العربي. ولو كانوا جادِّين في توحُّدِ العرب، فلماذا لا يُطبِّقون شيئًا من الاتفاقيات الكثيرة التي وقّعوا عليها مثل «اتفاقية السوق العربية المشتركة»؟

أمراض العمل القومي العربي

أولُ أمراض العمل القومي العربي هو التخلفُ المجتمعي. من ذلك تدنّي مستوى التعليم في الوطن العربي، وغيابُ القدرة على الإدارةِ المحكمةِ والتخطيطِ البعيدِ المدى، والفرديةُ دون المؤسّسية، والعمالةُ لأعداء الأمة، وفسادُ أهل السلطة.

برزتْ أزمةُ العمل القومي بوضوح حين استولى العسكرُ القوميون على السلطة في بعض الأقطار العربية، حاملين تحت جلودهم ما ذَكَرْنا من أمراض وإذ اتَّصفَ حكمُ العسكر بالدكتاتورية، بدأ الانحرافُ يعتري أساليبَهم في الحكم، لأنّ أمنَ نظامهم بات همَّهم الأول فوقع الوطنُ في قبضة أجهزة الأمن الصمّاء، وابتعد الشعبُ عن المشاركة في القرار، وانتشرتْ ظاهرةُ الزعيم الملهَم. وإذ فشلت الأنظمةُ الدكتاتورية، ظنّ المعادون للفكر القومي أنّ العلة كامنةٌ في الفكر لا في مَنْ يحمله.

لا ننسى هنا أن نَذْكر، في سياق أمراض العمل القومي، غلوَّ بعض اليساريين من القوميين في معاداتهم للدِّين. ولعلّ مثلَ هذا الموقف ينطبق عليه وصفُ لينين تصرُّفَ بعض غلاة الشيوعيين بالـ «الطفولة اليسارية»، إذ ليس لفكر اجتماعيٍّ أن يتجاهلَ الحالةَ الشعبيةَ إذا أراد لنفسه أن يكسبَ تأييدَ الشعب. وواقعُ أمّتنا أنّ عامّةَ الناس متديِّنون بالطبيعة، وتجاهُلُ هذه الحالة ليس إلا سباحةً عكسَ التيار.

أما بعدُ، فبالرغم من كثرة الآراءِ واختلافها حول فعّالية المؤتمر القومي العربي، وبالرغم من هناتِه، فإنّه يَبْقى منارةً فكريةً تضيءُ كلَّ عام، ونشاطًا عقليّاً يتناقش بين جدرانه مجموعةٌ من قادة الفكر حول حال الأمة وسُبُل تنميتها. وهذا المؤتمر ليس حزبًا سياسيّاً منظّمًا، فلا جدوى من تحميله ما لا يَحْتملُ ولا من مطالبته بأن يتحوَّلَ إلى حزب سياسي.

عمّان